بحث تاريخي

دير العذراء بالجنادلةً
من أهم الأديرة القبطية المعلقة

الأستاذة الدكتورة/ شيرين صادق الجندي
أستاذ الآثار والفنون القبطية
ورئيس قسم الإرشاد السياحي بكلية الآداب – جامعة عين شمس

❁✚❁

شُيِّد دير الجنادلة Dair al-Janadlah للسيدة العذراء مريم على بعد ما يقرب من ٤٥ كم فى جنوب غرب أسيوط وعلى بُعد ٣ كم تقريبًا من قرية الجنادلة وهى إحدى القرى التى تتبع مركز الغنايم بالقرب من الجبل الغربى على بُعد ما يقرب من ٢ كم غرب طريق الغنايم.

وترجع أهمية دير العذراء بالجنادلة إلى عدة أسباب ومنها تشييده بالقرب من وادي سرجة Wadi Sarjah، واحتواؤه على منشآت أثرية بها كثير من الزخارف والمنحوتات الفنية البديعة بالإضافة إلى تنوع الأعياد التى يتم الاحتفال بها فيه، لذا فهو واحدٌ من أهم المزارات الدينية القبطية والمواقع السياحية العامرة والمنتعشة فى محافظة أسيوط على مدار العام، فلا يخلو أبدًا من الزائرين ولا من الاحتفالات. ويقع جبل سرجة فى غرب أبو تيج. كما توجد بلدة سرجة ووادى سرجة بالقرب من دير القديس مقروفيوس أو أبو مقروفه Saint Macrobius / Maqrufiyus/Abu Maqrufah ابن الملك قاو بعدة كيلومترات. وقد ترهبن هذا القديس فى البلينا على يد القديس مويسيس أو موسى من أبيدوس Saint Moses of Abydos حيث كان القديس مقروفيوس من تلاميذه وأتباعه.

أسماء دير الجنادلة:

حتى وقت قريب، كان هذا الدير يُعرَف باسم دير أبو مقروفه من الاسم الذى أُطلِق على القديس مقروفيوس الذى أمر بتشييد الدير فى بدايات القرن السادس الميلادى. كما شَيَّد هذا القديس أديرة قبطية أخرى بالقرب من دير العذراء بالجنادلة مثل دير وادى سرجة ودير البلايزة القبلي ودير البلايزة البحري إلى جانب أديرة دكران. كما يُعرَف هذا الدير أيضًا باسم دير الجنادلة إشارة إلى ما يحيط به من أحجار وصخور تشبه الجنادل.

الدير فى المصادر التاريخية وكتابات الرحَّالة والعُلماء:

وردت الإشارة إلى هذا الدير القبطي الهام **(الشكلان رقم ١ و٢)** فى المصدر التاريخي الذي دوَّنه أبو صالح الأرمني Abu Salih the Armenian فى أواخر العصر الفاطمي، وذلك الذي كتبه تقي الدين المقريزي al-Maqrizi فى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، إلى جانب ما سجَّله المؤرِّخ المملوكي ابن دقماق.

كما أشار بعض الرحَّالة الذين زاروا مصر وكثير من الباحثين إلى دير الجنادلة مثل: M. Jullien (١٩٠٣)، W.M.F. Petrie (١٩٠٧، ١٩٠٩)، S. Clarke (١٩١٢)، Johann Georg (١٩٣١)، A.F. Otto Meinardus (١٩٧٧)، الألماني Peter Grossmann والفرنسى R.G. Coquin (١٩٩١). كما كتب الأنبا صموئيل أسقف شبين القناطر وتوابعها عن دير العذراء بالجنادلة فى مؤلفه المنشور سنة ٢٠٠٢.

الشكل رقم ١. منظر عام لدير الجنادلة من الخارج

المبانى المعمارية بالدير:

يرتفع هذا الدير عن مستوى سطح الأرض، لذا فهو دير من الأديرة الصخرية المعلَّقة. ويحيط بأغلب مباني الدير الأثرية سور خارجي كبير من الطوب اللبن. وقد تهدَّمت أغلب أجزاء هذا السور، ولم يتبق منها إلَّا أجزاء قليلة يمكن رؤيتها فقط حول كنيسة الدير. ويوجد المدخل الرئيسي للدير فى الناحية الشمالية الغربية كما هو معتاد فى أغلب الأديرة الأثرية القبطية. ويؤدي هذا المدخل إلى مغارة كبيرة ومغارات أخرى صغيرة.

الشكل رقم ٢. منظر عام لدير الجنادلة بأسيوط

وبداخل هذا الدير توجد كنيستان أثريتان **(الشكل رقم ٣).** وترجع الكنيسة الرئيسية بالدير إلى القرن الأول الميلادي تقريبًا. وتُعرف هذه الكنيسة باسم كنيسة العذراء مريم Church of the Virgin Mary وهي بمثابة مغارة صخرية منحوتة فى الجبل. ولهذه الكنيسة بابان: أحدهما جنوبي والآخر شمالي. ومدخل الكنيسة ضيق لذا يضطر زائرها إلى الانحناء قليلًا لدخولها.

الشكل رقم ٣. قباب إحدى كنائس دير الجنادلة بأسيوط

ويُرجَّح أن هذه المغارة قد شُرِّفت بقدوم العائلة المقدَّسة إليها أثناء هروبها فى مصر. كما زارها القديس مقروفيوس وشيَّد بداخلها كنيسة العذراء وفقًا لخصائص وسمات العمارة القبطية الأرثوذكسية، وبدون بناء أي حوائط حيث قسَّمها تقسيمًا أُفقيًّا من ناحية السقف. ففي الخورس الأول من الكنيسة وهو خورس المؤمنين، يرتفع السقف عن سقف الخورس الثانى. كما رسم فى تجويف سقف خورس المؤمنين بعض الخطوط التى تتشابه مع سعف النخيل وأشعة النور ربما للإشارة إلى السماء. وعلى جوانب خوارس الكنيسة الأثرية من أعلى، يمكن رؤية طبقتين من الرسم الجداري الأثري والذي يؤرخ من القرن الثامن حتى العاشر الميلادي. وبهذا الرسم بعض الأشكال الآدمية لبعض القديسين وعدة أسماء مدونة باللغة القبطية **(الشكل رقم ٤).**

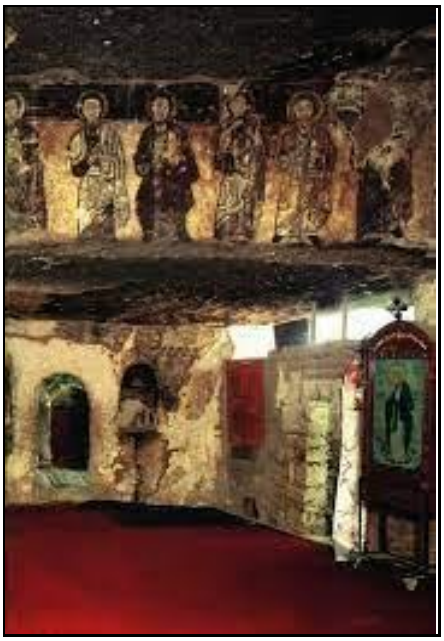

الشكل رقم ٤. رسومات ونقوش قبطية لبعض القديسين
فى شمال الخورس الأوسط فى الكنيسة الأثرية للعذراء مريم بدير الجنادلة

ويوجد إنبل هذه الكنيسة الأثرية فى الخورس الثاني وهو خورس الموعوظين. وتظهر فى الخورس الثاني أيضًا بعض الرسومات وأشكال الصلبان المختلفة بالإضافة إلى وجود بعض النقوش الأثرية والكتابات القبطية التي يمكن ترجمتها كالآتي: "يسوع المسيح

مخلّصنا" – "يسوع المسيح ربنا" – "يسوع المسيح إلهنا" – "يسوع المسيح رجاؤنا" – "يسوع المسيح ملكنا" – "يسوع المسيح ابن الله". وينخفض سقف خورس التائبين وهو الخورس الثالث والأخير بتلك الكنيسة الصخرية بشكل لافت للنظر وبما يؤدِّي إلى انحناء المؤمنين التائبين أثناء تواجدهم فيه.

وبصفة عامة، يحمل المذبح الرئيسي فى هذه الكنيسة اسم العذراء مريم. ويتقدَّمه حجاب مكوَّن من عدَّة أحجار جُمِعَت فى عصر سحيق حيث تظهر عليها علامة الحياة "عنخ" وربما كان هذا من أشكال الصلبان التى انتشرت فى زخارف كثير من التحف الفنية المؤرَّخة من العصور المسيحية الأولى فى مصر. وعلى نفس الأحجار، يوجد رسم لعنقود عنب والذى يُعَد رمزًا من رموز السيد المسيح، بالإضافة إلى رسم القربان وعناصر زخرفية أخرى ملوَّنة فى مختلف الاتجاهات بأسلوب فني يعكس جمال العناصر الزخرفية فى الفن القبطي **(الشكل رقم ٥)** وخُصِّص الهيكل الشمالي لرئيس الملائكة ميخائيل. وفي الناحية الشمالية من الكنيسة، توجد المعمودية. كما يوجد مذبح ثالث كُرِّس للقديس مقروفيوس بهذه الكنيسة.

الشكل رقم ٥. بعض أشكال الصلبان وعناصر زخرفية أُخرى بدير الجنادلة

وتُعرف الكنيسة الثانية فى هذا الدير باسم القديسين بطرس وبولس Saints Peter and Paul. ويعلو هذه الكنيسة المُشيَّدة من الطوب اللبن والطوب الأحمر أيضًا فى عام

١٧٦٥م تسعة قباب، كما أن بها ثلاثة هياكل شرقية. وكُرِّس الهيكل الشمالي منها للقديس مرقوريوس أبى السيفين. وخُصِّص الهيكل الأوسط للقديسَين بطرس وبولس. أما الهيكل الجنوبي فهو هيكل مار جرجس. ويُغطِّي صحن الكنيسة ستة قباب إضافة للثلاثة التي تعلو الثلاثة هياكل الشرقية وبذلك يكون إجمالي القباب فى الكنيسة تسعة قباب. وقد رُمِّمت هذه الكنيسة بواسطة الأنبا أندراوس بالتعاون مع هيئة الآثار المصرية حيث تم تقوية أساسات المبنى الأصلية التى أُنشئت على بعض الرديم. كما عولجت ما فى هذه الكنيسة من تشققات كانت تظهر بجدرانها. وتم تنظيف كثير من الرسومات الأصلية الملونة والنقوش الموجودة فى كنيسة العذراء الأثرية. وقام المتخصصون بتبليط فناء الدير وترميم سوره الخارجى.

وبصفة عامة، يمكن القول بأن أغلب معالم دير العذراء بالجنادلة هى مغارات جبلية متناثرة فى كل الاتجاهات ومنحوتة فى الصخر. ويبدو أن المصريين القدماء استخدموها فيما سبق كمحاجر. كما أعاد الرهبان استعمالها لتكون لهم بمثابة قلايات للتعبُّد فى خشوع وزهد وهدوء.

وأثناء عمليات الترميم التى أُجريت فى دير العذراء بالجنادلة، عُثِر فى إحدى الغرف المتجاورة والتى ربما كانت مخصَّصة لرئيس الدير على بعض التحف الأثرية النفيسة منها قنينة فخارية متوسطة الحجم وجد بداخلها بقايا زيت ربما كان زيت الميرون المقدَّس. كما وُجِدَت قنينة أخرى يُعتَقد أنه كان يوضع فيها بعض الزيت لاستعماله فى الكنيسة. إضافة إلى ما تقدَّم، عُثِر على أول معمودية حجرية فى أديرة وكنائس مصر أسفل السور الشمالي لهذا الدير الأثري الفريد فى أساليبه المعمارية وطرزه الفنية النادرة.

ملحقات الدير:

وبالدير بئر أثرية ترجع إلى القرن الأول الميلادي، وهى محفورة على عمق ١٨م تقريبًا فى الأرض الصخرية. وقد استُخدِمت الحجارة المنتظمة والمرصوصة فوق بعضها البعض لبناء ما يقرب من ثلاثة أمتار من هذه البئر. أما الخمسة عشرة مترًا المتبقية من البئر فهي عبارة عن نحت صخرى أسود اللون. ويعتمد رهبان الدير وزواره على ماء هذا البئر فى كل أمور حياتهم لا سيما فى أعمال الزراعة المختلفة وفى تربية الحيوانات والطيور.

وفى دير العذراء بالجنادلة، اكتُشِفَت عدَّة جبانات أثناء الحفائر الأثرية التى قام بها W.M.F. Petrie فى عام ١٩٠٧. كما اكتشف نفس العالِم قبرًا حجريًّا ظهرت فى زخارفه أشكال آدمية لبعض القديسين مثل: توماس Thomas، بطرس Peter ، يوسف Joseph، أنوب Anup، بامون Pamun.

ويوجد بدير العذراء بالجنادلة استراحة كبيرة وبيت للخلوة يتكوَّن من حوالي ستة عشرة غرفة. ويُعتبر الزيتون من أهم منتجات الدير الزراعية المتنوعة. وعلى بُعْد ساعة زمن من الخروج من دير الجنادلة، يجد الزائر لورا Laura (مسكن رهباني) بالإضافة إلى دير القديس مقروفيوس والذى أشار إليه كل من المؤرِّخ المملوكي ابن دقماق فى كتاب الانتصار وكذلك تقي الدين المقريزي.

الخاتمة:

وختامًا، يُعتبر دير الجنادلة واحدًا من المزارات الدينية المعلَّقة والأثرية والسياحية الهامة والمُشيَّدة فى صعيد مصر. كما أنه من أهم الأديرة القبطية المكرَّسة للسيدة مريم العذراء، لذا يتوافد عليه باستمرار أعداد غفيرة من الزائرين لأداء الصلوات ونيل البركة وللاستمتاع بالتجول فى مبانيه الأثرية المختلفة. وترجع أهمية هذا الدير كذلك إلى كثرة وتنوع الاحتفالات المقامة فيه، ولقِدَم أغلب مبانيه ولِمَا اكتُشِفَ فيه من تُحف أثرية تعكس زخارفها أهم خصائص العمارة والفنون القبطية المختلفة قديمًا وحديثًا، والتي تشهد على مهارة فنانين أقباط أبدعوا فى مجالات العمارة والفنون والنحت والحفر فى الصخر منذ عصور مبكرة على الرغم من أنه لم تتوافر لديهم حينذاك الأدوات والمعدات والإمكانيات المؤهِّلة لذلك كما هو مُتاح حاليًا فى ظل التقدُّم الصناعي والتكنولوجي الهائل الذى تعيشه البشرية.